



(٨)
سورة الأنفال
مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الحق سبحانه وتعالى مفتتحاً سورة الأنفال :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾

السؤال يقتضي سائلاً : وهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقتضي مسئولاً هو الرسول عليه الصلاة والسلام، ويقتضي مسئولاً عنه وهو موضوع السؤال المطروح .

والمسئول عنه قد يوجد بذاته، مثلما نسأل صديقنا : ماذا أكلت اليوم ؟ هذا السؤال فيه تحديد لمنطقة الجواب، والجواب عنه أيضا يحدد المنطقة .

وموضوع السؤال فى قول الله تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

يدل عليه الجواب، فهم لم يسألوا عن أسباب المحيض ، أو لماذا ينقطع عن الحامل أو من بلغت الكبر، لكن كان موضوع السؤال الذى هو واضح من إجابة الحق تبارك وتعالى : أيجوز أن يباشر الرجل المرأة أثناء المحيض أم لا ؟

وسؤال آخر سألوه للرسول صلى الله عليه وسلم عن اليتامى، ويحدد الجواب

موضوع السؤال : يقول الله تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٢٠ من سورة البقرة)

لأنهم كانوا يتخوفون من مخالطة اليتامى فى الأموال ومن مؤاكلتهم ، وغير ذلك من ألوان التعامل ، ورعاً وبعداً عن الشبهات وجاءت الإجابة لتحدد موضوع السؤال :

ومرة يأتى السؤال وفيه تحديد مناط الإجابة لأنها عامة مثل قوله الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾

(من الآية ١٨٩ من سورة البقرة)

هم سألوا محمداً صلى الله عليه وسلم : لماذا يبدأ الهلال صغيراً ولماذا يكبر ، ثم لماذا يختفى فى المحاق ؟ . وهذا سؤال فى الفلك . ولم يجبهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلا فى الحدود التى يستفيدون منها وهى القيمة النفعية العملية ، وجاءت الإجابة : ﴿ قل هى مواقيت للناس والحج ﴾ .

لأننا ورغم وجودنا فى هذا القرن العشرين إلا أن البعض من الناس مازال يكذب الحقيقة العلمية التى ثبتت بما لا يدع مجالاً لأى شك . ونقول للعامة : إن الهلال يشبه قلامة الظفر ثم يكبر ليستدير ثم يختفى قليلاً قليلاً . وفى هذا يقول الشاعر :

وغاية ضوء قمير كنت آمله   مثل القلامة قد قدت عن الظفر

ولو قال لهم : إن الهلال يظهر حين تتوسط الأرض بين الشمس والقمر ثم يبدأ

فى الاكتمال تباعاً، لما استطاعت عقولهم أن تستوعب هذه المسألة، فجاء لهم بالحكمة المباشرة النفعية التى تدركها عقولهم تماماً، ثم ارتقت العقول بالعلم ووصلنا إلى دراسة حركة الأفلاك التى توضح كل التفاصيل الفلكية.

وهناك سؤال يجيء فى أمر محدد، مثل قول الحق :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢١٧ من سورة البقرة)

وهكذا عرفنا أن موضوع السؤال هو عن حكم القتال فى الشهر الحرام، لا طلب تحديد الأشهر الحرم بالذات.

ويقول الحق تبارك وتعالى هنا : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ والأنفالُ جمعُ نَفَل (بفتح الحرف الأول والثانى)، مثل كلمة سَبَب وأسباب، والمراد بالنَّفل هنا الغنيمة ؛ لأنها من فضل الله تعالى وهى من خصائص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد اختصت بها هذه الأمة دون الأمم السابقة، والنفْل بالسكون الزيادة، ومنه صلاة النافلة ؛ لأنها زيادة عن الفريضة الواجبة، وفى هذا المعنى يقول ربنا عز وجل فى آية ثانية : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾.

ونافلة تعنى أمراً زائداً غير مفروض، ولذلك نقول : إن النفل هو العبادة الزائدة، وشرطها أن تكون من جنس ما فُرض عليك ؛ لأن الإنسان لا يعبد ربه حسب هواه الشخصى، بل يعبد العبد ربه بأى لون من ألوان العبادة التى شرعها الله، وإذا أراد زيادة فيها فلتكن من جنس ما فرض الله، حتى لا يبتدع العبد عبادات ليست مشروعة. ولذلك قال الحق تبارك وتعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

النفل إذن هو أمر تعبدى زائد عن الأصل .

وحينما ابتلى الله سيدنا إبراهيم عليه السلام بأن يذبح ولده إسماعيل ، جاءه الابتلاء لا بوحى صريح ، ولكن برؤيا منامية وهو ابتلاء شاق ، فلم يكن الابتلاء - مثلا - أن يذبح إنسان آخر سيدنا إسماعيل ، ثم يصبر سيدنا إبراهيم على فقده ، لا بل هو الذى يقوم بذبح ولده إسماعيل . وهكذا كان الابتلاء كبيراً ، خصوصاً أنه لم يأت إلا فى آخر العمر . وكانت هذه المسألة من الملابسات القاسية على النفس . ولذلك أوضح ربنا عز وجل أن سيدنا إبراهيم كان أمة ، أى اجتمعت فيه صفات الإيمان اللازمة لأمة كاملة .

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

ولنر رحموت النبوة فى سلوك سيدنا إبراهيم عليه السلام حين جاء لينفذ أمر الرؤيا بذبح الابن لأن رؤيا الأنبياء وحى ؛ لذلك لم يشأ أن يأخذ ولده أخذاً دون أن يطلعه على الحقيقة ؛ لأنه لو فعل ذلك سيعرض ولده لحظة لهاجس عقوق لأبيه ، وقد يقول الابن : أى رجل هذا الذى يذبح ابنه ؟ . وأراد سيدنا إبراهيم أن يشاركه ابنه كذلك فى الثواب ، وأن يكون الابن خاضعاً لأمر الحق تبارك وتعالى كأبيه فقال له :

﴿ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

وهكذا أوضح سيدنا إبراهيم عليه السلام الابتلاء الذى جاءه كرؤيا فى المنام.
فماذا يقول الابن إجابة على سؤال أبيه ؟

﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ ﴾

(سورة الصافات)

أى أن إسماعيل عليه السلام أسلم زمامه لأمر الحق تبارك وتعالى، ويواصل المولى سبحانه وتعالى وصف ابتلاء سيدنا إبراهيم بذبح الابن فيقول تبارك وتعالى:

﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ ﴾

(سورة الصافات)

فبعد أن رضى كل من سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل وسلما أمرهما لله تعالى وامتثلا للأمر بالقضاء، رفع الله برحمته هذا القضاء؛ لذلك يصف الحق تبارك وتعالى هذا البلاء وتكرمه بالفداء فيقول :

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧ ﴾

(سورة الصافات)

وتعلمنا هذه الواقعة أيها المسلم أنك إذا ما جاء لك قضاء من الله، إياك أن تجزع، إياك أن تسخط، إياك أن تغضب، إياك أن تتمرد؛ لأنك بذلك تطيل أمد القضاء عليك، ولكن سلم لقضاء الله فيُرفع هذا القضاء؛ لأن القضاء لا يُرفَع حتى يُرْضى به. وهكذا لم يكن جزاء الصبر على القضاء لسيدنا إبراهيم عليه السلام افتداء إسماعيل بذبح عظيم فقط، بل وزيادة على ذلك يسوق له المولى البشرى بمزيد من العطاء فيقول :

﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى أنه لم يرزقه بولد ثان فقط ، بل بولد يكون نبياً وصالحاً . وتأتى زيادة أخرى فى العطاء الربانى لسيدنا إبراهيم عليه السلام فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

هكذا يتجلى عطاء المولى سبحانه وتعالى لسيدنا إبراهيم عليه السلام فلا يعطيه الولد الذى يحفظ ذكره فقط ، بل يعطيه الولد الذى يحفظ أمانة الدعوة أيضاً، وكل ذلك نافلة من الله ، أى عطاء كريم زائد وفضل كبير لأبى الأنبياء .

إذن النفل هو الأمر الزائد عن الأصل . ومثال ذلك ما خص الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة)[1] .

إذن تشريع الله للغنائم فى الإسلام أمر زائد عن الأصل ؛ لأن الغنائم لم تحل لأحد من الأنبياء قبل رسولنا صلى الله عليه وسلم .

وهناك نفل ، وهناك غنيمة ، وهناك فىء ، وهناك قبض .

وسنوجز معنى كل منها :

(١) رواه البخارى ومسلم عن جابر رضى الله عنه . وجامع الأحاديث للسيوطى حـ ١ ص ٦٣٥ .

الغنيمة : هي ما يأخذه المسلمون من الأعداء المهزومين، وتقسم فيما بينهم بنسب معينة، فللرجل المقاتل سهم واحد، وللفارس سهمان، وهذا على سبيل المثال فقط وتقسيمها حسب تشريع الله عز وجل، وسبق بيان النفَل والنفْل بفتح الوسط وسكونه، والفيء هو كل مال صار للمسلمين من غير حرب ولا قهر - « والقبَض » بتحريك الوسط بمعنى المقبوض وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم.

لكن إذا جاء ولى الأمر وبين للمقاتلين مشجعاً لهم على حركة الحرب مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

(من قتل كافراً فله سلبه)(١).

فذلك أمر زائد فى حصته فى الغنيمة.

وقد يبعث القائد سريةً ويشجعها على خوض الصعاب فيقول لأفراد تلك السرية : لكم نصف ما غنمتم، أو الربع أو الخمس، فهذا يعنى أن من حقهم أن يأخذوا النسبة التى حددها لهم القائد كأمر زائد، ثم تقسم الغنائم من بعد ذلك، وساعة يأخذ المقاتلون الأسلاب والمتاع، والعتاد والأموال من الأسرى، فهذه تسمى غنائم، أما حين تُجْمع الغنائم عند ولى الأمر فيصير اسمها القبَض وقد سبق بيانه.

وفى يوم بدر حدثت واقعة يرويها الصحابى الجليل سعد بن مالك رضى الله عنه قائلاً :

قلت يا رسول الله : قد شفانى الله اليوم من المشركين، فهب لى هذا السيف، قال عليه الصلاة والسلام : « إن هذا السيف لا لك، ولا لى، فضعه »، قال : فوضعته، ثم رجعت، فقلت : عسى أن يعطى هذا السيف من لا يبلى بلائى، قال : فإذا رسول الله يدعونى من ورائى. قال الصحابى : قد أنزل الله فى شيئاً ؟. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت سألتنى السيف، وليس هو لى، وأنه قد وُهب لى، فهو لك، قال : وأنزل الله هذه الآية :

(١) رواه البيهقى وأبو داود والترمذى عن ابن قتادة.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾

(من الآيه ١ سورة الأنفال)

أى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن ليحكم فى أمر السيف إلا بعد أن يتزل حكم الله عز وجل . ونعلم جميعاً أن النبى صلى الله عليه وسلم ذهب إلى غزوة بدر ولم يكن يقصد القتال، بل كان الخروج للعير التى تحمل بضائع قريش القادمة من الشام، وليس معها إلا أربعون رجلاً يحرسونها، ولذلك خرج المسلمون وكان عددهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً وليس معهم عدة أو عتاد، بل لم يكن لديهم إلا فرسان اثنان لأنهم لم يخرجوا لقتال، بل خرجوا للعير بغية أن يعوضوا أنفسهم شيئاً مما سُلبوه فى مكة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أبا سفيان سلك طريق الساحل. أى سار فى طريق بعيد عن المسلمين ولم يأت من جهة الرسول والذين معه، واستنفرت قريش كل رجالها ليحموا العير، وصار الأمر بين أن يرجع المؤمنون دون حرب، وإما أن يواجهوا النفير، وهو التعداد الكثير، وكانوا ألفاً ومعهم العُدّة والعتاد، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشجع الفتيان على الحرب فقال لهم : « من قتل كافراً فله سلبه »، أى أنه خصّهم بأمر زائد عن سهمهم فى الغنيمة. فلما علم الكبار من الصحابة والشيوخ، قالوا : يا رسول الله هم قاتلوا وقتلوا، لكن نحن كنا عند الرايات، يفيئون إلينا إن وقعت عليهم هزيمة فلابد أن نتشارك، وحدث لغط وخلاف، فحسم الله سبحانه وتعالى هذا اللغط بأن أنزل قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله ﴾ .

فبين سبحانه أن الحكم فى قسمة الغنائم بين الجميع لله وللرسول وإياكم أن تخرجوا عن أمر الله فيها، واجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية . فلا تنازعوا ولا تختلفوا ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ .

إن كان قد حصل بين الطرفين، الشبان والشيوخ الكبار قليل من الخلاف فأصلحوا ذات بينكم. وساعة تسمع ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ قد تسأل : ما هو البين ؟ الجواب « البين » هو ما بين شيئين، فحين يجلس صف من الناس بجانب بعضهم

البعض ، فما بين كل منهم هو ما يُسمى « البين » ، وقد يكون الذى يفصلنا عن بعض « بين مودة » أو بين جفوة ، إذن فالبين له صورة وله هيئة ، فإن كانت الصورة التى بينكم وبين بعضكم فيها شيء من الجفوة فأصلحوا السبب الذى من أجله وُجِدَ «البين» حتى لا يكون بينكم جفوة ونزاع .

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾

(من الآية ١ سورة الأنفال)

وقلنا إن أمر الطاعة معناه الامتثال ، والطاعة ليست للأمر فقط بل للنهى أيضاً ، لأن الأمر طلب فعل ، والنهى طلب عدم فعل ، وكلاهما طلب . وحينما يقول الحق : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ .

تفهم هذا القول على ضوء ما عرفناه من قبل وهو أن مسألة الطاعة أخذت فى القرآن صورا ثلاثا ، الصورة الأولى : يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ وفيها يكرر المطاع وهو الله والرسول ، ولكنه يفرد الأمر بالطاعة .

ومرة ثانية يقول المولى عز وجل :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة المائدة)

أى أنه سبحانه يكرر المطاع ، ويكرر الأمر بالطاعة .

ومرة ثالثة يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ . لأن منهج الله فيه أمور ذكرها الله عز وجل ، وذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواردت السنة مع النص القرآنى ، فنحن نطيع الله والرسول فى الأمر الصادر من الله . وهناك بعض من التكاليف جاءت إجمالية ، والإجمال لابد له من تفصيل ، مثل الصلاة وفيها قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النساء)

إذن فالله عز وجل أمر بالصلاة إجمالاً وقدّم الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الإجمال تفسيراً . تطبيقاً فهى خمس صلوات ، ركعتان للصبح ، وأربع ركعات للظهر ، وأربع ركعات للعصر ، وثلاث ركعات للمغرب ، وأربع ركعات للعشاء ، وحدد الرسول عليه الصلاة والسلام الصلوات التى نجهر فيها بقراءة الفاتحة وبضع آيات من القرآن ، وحدد الصلوات التى لا نجهر فيها بالتلاوة .

إذن فحين يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ أطيعوا الله ﴾ ، أى أطيعوه فى مجمل الحكم ، وحين يقول : ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ أى أطيعوه فى تفصيل الحكم ، وإذا ما قال : ﴿ أطيعوا الله والرسول ﴾ فهذا يعنى أن الحق قد أمر وأن الرسول قد بلغ ، والمراد واحد ، وإذا لم يكن لله أمر ، وقال الرسول شيئاً فالحق يقول : ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ ، وسبحانه قد أعطى رسوله تفويضاً بقوله :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

أى أن كل أمر من الرسول إنما يأتى من واقع التفويض الذى أكرمه الله به ، وهنا يقول سبحانه وتعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

أى إن كنتم مؤمنين حقا فاتقوا الله الذى آمنتم به واتبعوا الأمر الصادر من الله

ورسوله لكم، لأن مدلول الإيمان هو اقتناع القلب بقضية لا تطفو للمناقشة من جديد، وكذلك اقتناع بأن هذا الكون له إله واحد، وله منهج يبلغه الرسول المؤيد من الله عز وجل بالمعجزة، وهذا الإيمان وهذا المنهج يفرض عليكم تقوى الله بإصلاح ذات البين، ويفرض عليكم طاعة الله والرسول فى كل أمر، ومن هذه الأمور التى تتطلب الطاعة هو ما أنتم بصدده الآن، لأنه أمر فى بؤرة الشعور.

ويأتى الحق بعد ذلك ليبين من هم المؤمنون فيقول:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾

وفى هاتين الآيتين الكريمتين خمسُ صفات لها ترتيب عقائدى وحركى وجوارحى، وبذلك يتحدد تشخيص كلمة «المؤمنين»، هذه الصفات هى الأولى: أنه إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وثانية الصفات أنه: إذا تليت عليهم آيات الله زادتهم إيماناً، ثالثة الصفات: أنهم على ربهم يتوكلون، ورابعة الصفات: أنهم يقيمون الصلاة، وخامسة الصفات: أنهم ينفقون مما رزقهم الله.

والصفة الأولى للمؤمنين هى:

﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة الأنفال)

والوجل هو الخوف فى فزع ينشأ منه قشعريرة، واضطراب فى القلب، وحينما أراد الشعراء أن يعطوا صورة بهذا الإحساس، نجد شاعراً منهم يقول:

كأن القلب ليلة قيل يغدى بليلى العامرية أو يراح

قطــاط غرها شرك تجا ذبه وقد علق الجنــاح

فالشاعرُ يصور حالة قلبه حين سمع بنبأ سفر حبيبته، كأنه صار مثل حمامة تحاولُ أن تخلّص نفسها من شبكة أو مَصْيدة وقعت فيها، إنها تجاذب المصيدة حتى تخرج، وهى ترجف فى مــثل هذا الموقف، هكذا حــال القلب لحظة فــراق المحبــوبة عند الشاعر.

وإذا كـان ذكر الله عز وجل يدفع قلوب المؤمنين إلى الوجل، ألا يتنافى ذلك مع قول الحق سبحانه وتعالى :؟

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الرعد)

فى الحقيقة لا يوجد تعارض بين القولين؛ لأن ذكر الله تعالى يأتى بأحوال متعددة، فإن كان الإنسان مسرفاً على نفسه، فهو يرجف حين يذكر الله الذى خالف منهجه. وإن كان الإنسان يراعى حق الله فى كل عمل قَدْر الاستطاعة، فلابد أن يطمئن قلبه لحظة ذكر الله؛ لأنه اتبع منهج الله ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

إذن فالخوف أو الوجل إنما ينشأ من مَهابة وسطوة صفات الجلال. والاطمئنان إنما يجىء من إشراقات وحنان صفات الجمال. ولذلك تجمعهما آية واحدة هى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الزمر)

فالجلود تقشعر خوفاً ووجَلاً ومهابة من الله عز وجل، ثم تلين اطمئناناً وطمعاً فى حنان المنّان سبحانه وتعالى، لأن ربّنا قال :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فلا يقولن أحد إن هناك تعارضاً بين الوجل والاطمئنان، فكلها من ذكر الله بالأحوال المتعددة للإنسان، فإذا ما وجل الإنسان فهو يتجه إلى فعل الخير فيطمئن مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)

وهل يزيد الإيمان أو ينقص ؟

اختلف العلماء في هذا الأمر. ونحن عندما ننظر إلى قول الحق نجده يؤكد زيادة الإيمان، وحينما نسأل ما الإيمان ؟ وما الإسلام ؟ . . . . إلخ نجد الجواب في توضيح الرسول صلى الله عليه وسلم ورده على السائل في الحديث الآتي والذي يرويه الصحابي الجليل سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه حيث قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال يا رسول الله : ما الإيمان؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر، قال يا رسول الله : ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان. قال يا رسول الله : ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك . قال : يا رسول الله : متى الساعة ؟ قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها، إذا ولدت الأمة ربها فذلك من أشراطها، وإذا كانت العراة الحفاة رءوس الناس فذاك من أشراطها، وإذا تطاول رعاءُ البَهْم في البنيان فذاك من أشراطها في خمس لا يعلمهن إلا الله. ثم تلا صلى الله عليه وسلم : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير، ثم أدبر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : ردوا عليّ الرجل فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم (١).

وجبريل عليه السلام حين جاء يسأل ليعلم بعضاً من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له الرسول عليه السلام عن الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وفى رواية أخرى ذكر القضاء والقدر خيره وشره .

وهذه كلها أمور غيبية ، ولا يقال فى الأمر المحسّ إيمان ، فلا يقول واحد : أنا مؤمن أنى أتحرك على الأرض ؛ لأن هذا أمر حسىّ . والإيمان لا يكون إلا بالأمور الغيبية وأولها أن تؤمن بإله واحد لا تدركه الأبصار وهو غيب ، وبملائكته وهى غيب ، وصدقنا وجودها لأنه أبلغنا بذلك الوجود . وكذلك أن نؤمن بالكتب المنزلة على الرسل . وبالرسل ، وصحيح أن الكتاب أمر حسىّ والرسول كذلك له وجود حسىّ ، لكن لم نشاهد الوحى وهو ينزل الكتاب على الرسول . إذن فهو أمر غيبى ، وكذلك الإيمان باليوم الآخر أمر غيبى أيضاً ، والإيمان بالقضاء والقدر وهو ما غابت عنا حكمته ، وكلها إذن أمور غيبية .

هذا الإيمان فى القمة ، لكن هناك إيمان آخر يجىء لأننا نعلم أن التشريعات لم تأت مرة واحدة ، بل كانت تأتى على مراحل ، فتشريع ينزل أولاً بأن نؤمن أنه من الله . إذن فالذى يزيد وينقص من الإيمان هو الإيمان بالتكليفات ، وأنها صادرة من الله عز وجل ، وكلما كانت تنزل آية بتشريع جديد كانت تزيد المؤمنين إيماناً ، فعندما نزل الأمر بالصلاة آمنوا بإقامتها واستجابوا ونفذوا ، ثم جاء الصوم فامتثلوا للأمر به ، ثم يجىء الأمر بالزكاة فتكون الطاعة والتنفيذ ، وطبعاً هناك فرق بين أن تؤمن بالشىء ، وأن تفعل الشىء . فالإيمان شىء ، وفعله شىء ؛ لأن الإسلام هو الانقياد الظاهرى للمنهج ، وتطبيق كل ما يجىء به الإسلام هو إيمان مستمر متزايد ؛ لأننا آمنا بأن ما يجىء من المنهج هو من الله . إذن فالذى يزيد هو توابع الإيمان من التكليفات والامتثال لهذه التكليفات ، مثال ذلك : كلنا نعرف قول الحق :

(١) أخرجه الامام مسلم فى صحيحه الجزء الأول ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ كتاب الإيمان .

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

لكن هناك أناس يتمسكون بحرفية قوله الحق :

﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

والذين يتمسكون بحرفية القول الحق لم يتساءلوا : كفر بماذا ؟ هل كفر لأنه لم يحج ؟ لا ، إن كفره في هذه المسألة لا يكون إلا بأن ينكر أن الحج ركن من أركان الإسلام ، فالمطلوب منا إيمانياً أن نقر بالحج كركن من أركان الإسلام في حدود الاستطاعة ، فإن فعله الإنسان كان قد نفذ الحكم ، أما إن لم يفعله فقد يكون ذلك في حدود عدم الاستطاعة .

ويذيل الحق تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها بقوله : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ .

ومُتَعلَّق الجار والمجرور دائماً يكون متأخراً ، بينما هنا يتقدم الجار والمجرور ؛ لذلك ففي الأسلوب حصر وقصر ، مثلما نقول : « لزيد المال » أي أن المال ليس لغيره ، وقول الحق : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي لا يتوكلون على غيره ، بل قصروا توكلهم على الله سبحانه وتعالى ، والتوكل : أن تؤمن بأن لك وكيلاً يقوم لك بمهام أمورك ، بدليل أن الشيء الذي لا تقوى عليه تقول بصدده : « وكلت فلاناً ينجزه لي على خير وجه » وحتى تختار الذي توكله ويكون مناسباً لأداء تلك المهمة فأنت تعلن باطمئنان : أنك قد وكلت فلانا .

إذن معنى ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي أنهم يكلون أمورهم على من ائتمنوه على مصالحهم ، وهو الحق سبحانه وتعالى القادر العظيم الذي خلق الكون ، وخلق فيه أسباباً تؤدي إلى مسبَّبات الأسباب مقدمة ، والمسبَّبات هي النتيجة . وبعد ذلك ترك

أموراً ليس فيها أسباب ، إلا أن نلحظ دائماً المسبب وهو الله تعالى ، فكل أمر يعز عليك فى أسبابه ؛ إياك أن تيأس من أنه لا يحدث ، بل قل : تلك هى قضية الأسباب ، أما أنا فلى رب خلق الأسباب . وهو القادر فوق كل الأسباب ، وفى حياتنا اليومية نلحظ أن الناس يخلطون بين عمل الجوارح ، وعمل القلوب ، ويظن إنسان ما أنه متوكل ولا يأخذ بالأسباب ويركن إلى الكسل ويقول : أنا متوكل على الله ، وهذا نقول له : لا ، إن هذا منك تواكلٌ وليس توكلاً ؛ لأن التوكل ليس عمل جوارح ، التوكل عمل قلوب .

والمؤمن الذى يستقبل منهج الله بالفهم يجد الأسباب التى يجب أن يأخذها ، وسبحانه وتعالى هو المسبب الأعلى ، والإيمان يؤكد أن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، فعلى الجوارح أن تحرث الأرض ، وأن تختار البذرة الطيبة ، وتنثرها فى الأرض ، ثم ترويها ، وتتعهدها ، وهذه العمليات اسمها الأسباب ، ثم لا تركن إلى الأسباب فقط ، بل عليك أن تقول : إن فوق كل الأسباب هناك المسبِّبُ . فمن الجائز أن يخضر الزرعُ وينمو ، ثم تأتى له آفةٌ من مطر أو حر وتضيعه .

ومن ينقل التوكل إلى الجوارح . نقول له : أنت تواكلت ، أى نقلت عمل القلب إلى الجوارح . ومن يقول ذلك إنما يكذب على نفسه وعلى الناس . لأنه تكاسل عن الأخذ بالأسباب وادّعى أنه متوكل على الله . ولو كان الواحد من هؤلاء صادقاً فى توكله على الله لأخذ بالأسباب . وعادة فإنى دائما أقول لمن يدّعى التوكل مع الكسل : لماذا لا تترك الطعام يأتى إلى فمك ، لماذا تمد إليه يديك ؟ . إن من يكسل إنما يكذب فى التوكل ، فلا أحد مثلاً يترك قطعة اللحم تقفز من طبق الطعام إلى فمه ، لكنه يأخذها بيده . ويمضغها بأسنانه ، ويبلعها بعد المضغ ، ولو كان صادقاً فى أن التوكل هو ألا تعمل جوارحه لما فعل شيئاً من ذلك ، لكنه يكذب ويتواكل فيما يتعبه ويشغل جوارحه فيما يريحه ، ولا يستعملها فى الأمور التى تتعبه . وقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾

هذا القول يعنى أنهم يؤمنون بأن الأسباب من خلق الله . وحين يأخذ المؤمن

بالأسباب فهو يؤمن أنه لاجئ إلى الله ومعتمد عليه ، لكن إن عزت عليه الأسباب فهو يعلم أن له رباً ، ولذلك قال : ﴿ وعلى ربهم ﴾ ، والرب هو الخالق من عَدَم ، والممد من عُدْم ، ومادام قد خلقك وأمدك من عُدْم قبل أن يكلفك ، فهل من المعقول أن يظلمك ؟ طبعاً لا . لكن عليك أن تفطن أنه خلق لك جوارح ، فاستعملْ الجوارح فيما خلقت من أجله .

وتأتى الآية التالية لتوضح عمل الجوارح ، وهى تحمل الصفتين الرابعة والخامسة من صفات المؤمنين :

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

والقيام والقعود والقراءة والتسبيح والتكبير فى الصلاة عمل جوارح ، وكذلك الزكاة هى عمل ناتج من عمل سبق ، فحتى تخرج الزكاة لابد أن تبذل الجهد وتأخذ بالأسباب لتنتج ما يعولك أنت ودائرتك القريبة من زوجة وأبناء ثم أقارب ، ومن بعد ذلك يفيض من المال ما تستقطع منه الزكاة ، وهذه بطبيعة الحال غير زكاة الزروع التى تُخرَج فى يوم الحصاد .

﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأنعام)

ودائما ما نجد الصلاة والزكاة وهما مقترنتان ببعضهما ، ولا تجد آية فيها ذكر للصلاة إلا وفيها ذكر للزكاة أيضاً ؛ لأن الصلاة تعنى ترك أمورك الحياتية التى تسعى فيها لدنيا الأسباب ، وتذهب إلى الحق سبحانه وتعالى وتقف بين يديه ، أى أنك قد اقتطعت جزءاً من الزمن الذى كنت تقضيه فى حركة حياتك لتقف فيه أمام ربك خالق الأسباب .

والزكاة تعنى أنك تقتطع جزءاً من مالك ، ولذلك قلنا : إن الصلاة فيها زكاة

وزيادة ، فأنت تخرج مقدار اثنين ونصف فى المائة مما يتبقى معك من مال يبلغ نصاباً ويكون زائداً عن الحاجة الأصلية ، لكنك بالصلاة تضحى ببعض الوقت الذى تقضيه فى العمل الذى يأتى لك بأصل المال ، إذن ففى الصلاة زكاة وأكثر . وأنت فى الزكاة تتنازل عن بعض المال ، لكنك فى الصلاة تتنازل عن الوقت الذى هو محل العمل ، وهو الذى تنتج فيه الرزق ، والرزق وعاء الزكاة .

ويذيل الحق سبحانه وتعالى هذه الآية قائلاً :

(ومما رزقناهم ينفقون) ونعلم أن الرزق كما ذكر العلماء هو كل شئ ينتفع به الإنسان ، وحتى اللص الذى يسرق وينتفع بسرقته يعد هذا بالنسبة له رزقاً لكنه رزق غير طيب وله عقاب فى الدنيا إن تم ضبطه ، ولن يفلت من عقاب الله الحاكم العادل فى الدنيا والآخرة ، وهو بطبيعة الحال غير الرزق الحلال الذى يأتى من عمل مشروع ، والمؤمن الحق هو من ينفق من هذا الرزق الحلال ؛ سواء لمتطلبات حياته أو رعاية المجتمع الإيمانى .

وبعد ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

و « أولئك » تشير إلى من أنعم الله عليهم بالصفات الخمس السابق ذكرها ، وهؤلاء هم من وجلت قلوبهم من ذكر الله ، وزادتهم الآيات فى إيمانهم ، وعلى ربهم يتوكلون ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، هؤلاء هم المؤمنون حقاً ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ .

ولنعلم أن الحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ولا تذهب به الأغيار ، ويخضع له كل الناس لأنه يتعلق بمصالح حياتهم . وإن جاء الباطل ليزحزح الحق ، نجد الحق ثابتاً لا يتزحزح لأنه قوى . ولنقرأ قول الحق تبارك وتعالى :